

الطوطم المقدس ودراما "الحلول" في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني

د/ ميلود شنوفي

جامعة البليدة2

يعالج هذا البحث مسألة تراثية في خطاب الرواية الصحراوية المغربية وهي مسألة "الحلول" ذات البعد الديني الصوفي، لكنها في الرواية تأخذ بعدا فلسفيا قوامه اعتقاد بعض الأشخاص أو المجتمعات المصغرة بأنها من أصل حيواني محدّد، ويستتبع هذا الاعتقاد تقديس مفرط لهذا الطوطم وإيمان راسخ بمسألة الحلول، ليس حلول الله في المخلوقات بحسب التصور الصوفي، بل حلول الطوطم في الجسد البشري بما يرسخ اعتقادا شعبيا لفكرة الحلول الصوفية، لذلك حين حلت روح حيوان "الودّان" في ذات "أسوف" الإنسان، نظم شيوخ الصوفية حلقة ذكر جذبوا فيها حتى الصبح فرحا بحلول الذات الإلهية في المخلوق الأرضي البائس.

1- عتبة: "أسوف" رجل بسيط يعيش منعزلا في الصحراء. مات أبوه وهو طفل، ترعرع وكبراعيا متشبّثا بمبادئ والده، وموقفه من الناس: «أجاور الجنّ ولا أجاور الناس. أعوذ بالله من شرّ الناس»⁽³⁶⁾ علّمه والده كلّ ما يحتاج إليه للعيش في الصحراء، لكنّه أحجم عن تعليمه صيد الودّان. أمّه قالت إنّ والده نذرندرا بالألّا يصطاد الودّان ولا يدرّب نسله على صيده، بعدما كاد يهلك وأنقذه الودّان الذي كان يسعى لصيده مرّة، قبل أن يولد "أسوف". لكنّ سنوات الجوع المتلاحقة أجبرته على الخروج لصيده، حنث القسم وخان

36- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ط3، دار التنوير للطباعة والنشر، تاسيلي للنشر والإعلام، قيرص 1992، ص24.

العهد، وكان يعلم أنّ الودّان لن يسامحه، وأنّه لن يعود من رحلة صيده: «انتظراه عدّة أيام، ثمّ أعلنت الأم عن قلقها: أبوك لا يغيب بلا سبب. لقد مضى أكثر من أسبوع على رحيله.»⁽³⁷⁾ اقتفى "أسوف" أثره، قضى أياماً يقتفي الأثر، حتى وجد آثار صراع والده مع الودّان في وادي "آينسيس"، تتبّع آثار المعركة.. وتحت القمّة المشؤومة التي قفز منها ودّان ذات مرّة فكسر رقبته بعد أن رأى الوالد يحتكم إلى البندقية، وجده ممدداً على ظهره ميتاً، لا أثر للزيف، ولا بقعة دم: «لقد كسر الحيوان المسكون رقبته كما كسر هو يوماً رقبة ذلك الودّان الذي انتحر.»⁽³⁸⁾

2- قداسة الطوطم ودراما "الحلول": وكانت لأسوف هو الآخر تجربة مع الودّان:

انضمت إلى قطيعه ثلاثة رؤوس من الودّان، لم يعرف كيف نهض، انساق مستسلماً خلف إحداها كالمجذوب بالوجد... شكّل بحبل الليف مشنقة ولوّح بها إلى قرون الودّان العظيم، جرحه الحيوان بحركات عصبية عبر الوادي والصخور وبلغ به السّفح... ثمّ تسلّق أوعر الصخور... وجد نفسه فوق قمّة الجبل، ركض الحيوان على حافة القمّة ثمّ قفز في الهاوية، فوجد "أسوف" نفسه معلقاً في نتوء صخرة في أعلى الجبل وساقاه تتدليان، قضى الليل على هذه الحال، وعند الفجر عاد الودّان ومدّ له حبل الليف المشكّل في قرونه، أنقذه. وفي غبش الإصباح تبين له منقذه، ورأى أباه في عين الحيوان المهيّب. بعدها عاف أكل اللحم وأقسم ألا يصطاد ولا يأكل لحم أي حيوان.

وحين ماتت أمّه وانقرض قطيعه بسبب الجذب، انقطع آخر حبل يربطه بـ"مساك صطفت" فنزل إلى الواحة. اعتقله رجال الكابتن "بورديلو" في اليوم الأوّل لدخوله الواحة، وساقوه مع غيره إلى الحامية في انتظار ترحيلهم إلى "العوينات" و«في الطريق قبل أن يبلغوا "العوينات"، حدث ما تناقله الأهالي ونسجوا حوله الأساطير. روى لهم الشباب، فقالوا إنهم رأوا المعجزة لأوّل مرّة في حياتهم. شاهدوا إنساناً يفلت من الأسر ويتحوّل إلى ودّان، يعدو نحو الجبل ويتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من

37- المصدر نفسه، ص 31.

38- المصدر نفسه، ص 34.

كلّ جانب.»⁽³⁹⁾ لقد حلّ الوالد في الودّان وحلّ الودّان في "أسوف". الصوفيون الحكماء في الواحات أجمعوا: ذلك وليّ من أولياء الله، نظموا حفلة وجدبوا حتى الفجر فرحا بحلول الذات الإلهية في المخلوق الأرضي البائس⁽⁴⁰⁾.

يقول سارد الرواية في وصف صخرة "وادي متخندوش" التي لجأ إليها "أسوف" لأداء الصلاة هرباً من ضجيج نطاح التيوس: «... على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض ويلامس بيده اليمنى الودّان الذي يقف بجواره مهيباً، عنيدا، يرفع رأسه مثله مثل الكاهن، نحو الأفق البعيد.»⁽⁴¹⁾ ويشرح الروائي في الهامش معنى الودّان بالقول إنّه «أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر.»⁽⁴²⁾ لكنّه لا يقول من أين استخلص أسبقية الودّان في الصحراء على بقية الحيوانات و«مما لا شكّ فيه أنّه أراد إبراز الأهمية التي يولمها الطوارق له، فقد كانوا ومازالوا يحيطون الودّان بأهمية استثنائية هي مزيج من الإعجاب والرهبة.»⁽⁴³⁾ ويبدو أنّ "سمعته" تتجاوز حدود الصحراء، فقد رأى "أسوف" قبل أن يعرف حقيقة الحيوان «امرأة أوروبية تركع أمام الصخرة على ركبتيها وتتمتم بكلام مهم، عرف بالحدس أنّه صلوات النصراري.»⁽⁴⁴⁾

ترسم الرواية صورة للودّان تلقّاهم القداسة ويجلّلهما الإكبار، حيوان جبلي يتطلّع دائما إلى الأعالي، متفرّد، منعزل في كهباء وشموخ، هو الذي أنقذ والد أسوف من الموت وهو يحاول اصطاده: هاجمه بحبل الليف قطعنه الودّان. يحكي له والده: «حاولت أن أخنقه بالحبل فوجّه إليّ طعنة طرحتني على الأرض... نزعني على الأرض وألقى بي بعيدا بحركة واحدة، ثم لاحقي ليسحقتي بسلاحه الشيطاني... وعندما شاهديني أحتكم إلى البندقية، تسلّق في حركة

39- المصدر نفسه، ص83.

40- المصدر نفسه، ص84.

41- المصدر نفسه، ص8.

42- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

43- سعيد الغاني، ملحة الحدود القصوى، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب 2000، ص102.

44- الرواية، ص98.

خاطفة، وقفز إلى الأرض، فكسرت رقبتة...، ومات دون أن تختفي تلك النظرة من عينيه المفتوحتين: مزيج من الشقاء والحقد والعجز»⁽⁴⁵⁾ ولما أقفرت الأرض واضطر الوالد إلى الذهاب في رحلة صيد الودّان في رؤوس الجبال القاسية، وهو «يقرأ كلّ الآيات التي حفظها من القرآن الكريم ويردّد تائم السحرة والزنوج بلغة "الهوسا" ويعلّق على رقبتة التعاويذ المحصّنة في جلود الثعابين التي جلبها له تجار القوافل من العرافين في "كانو"»⁽⁴⁶⁾ لم يعد منها. كسر الحيوان المسكون رقبتة كما كسر هو ذات يوم رقبة ذلك الودّان الذي انتحر.

إنّ مقتل الوالد مرتبط بنقض العهد بينه وبين الودّان. فقد قطع له عهداً بأن لا يتعبّه ولا يصطاده، ولا يعلم نسله صيده. هكذا تكشف الأمّ لابنها العهد الذي نقضه الوالد: «أبوك لا يريدك أن تسفك دماء الودّان لأنّه نذرنا من زمان. قبل أن تولد. كان يصطاد في سفوح جبال "آينسيس" فزلقت رجله ووجد نفسه معلقاً بين السماء والأرض، يمسك بصخرة ورجلاه تتدليان في الهاوية. فقد الأمل في النجاة، فانتشله نفس الودّان الذي كان يقاتله وينوي قتله وأنقذه من الهلاك.»⁽⁴⁷⁾ لكنّه جاع، فعاد يصطاد الودّان... لم يسامحه، كسرت رقبتة، لأنّه خالف النذر.

لقد حرّم النذر على الولد أن يرث حرفة والده، النذر ليس مزحة، والودّان يعرف ذلك، لكن "أسوف" في أوّل فرصة رأى فيها الودّان «لم يعرف كيف نهض وكيف زحف إلى موقع الحيوان المسكون، بل لم يدرك هدفه من هذا العمل، قوّة مجهولة دفعته إليه، نسي النذر، ونسي مصير الوالد وانقاد إليه مأخوذاً، مسلوب الإرادة.»⁽⁴⁸⁾ وبعد أن خسر المعركة، لم يتخلّ عنه الودّان، فمثلما أنقذ والده في المرّة الأولى أنقذه هو كذلك، بعد أن بات معلقاً بنتوء صخرة وكاد يسقط في الهاوية: «شيء خشن لامس أصابع يديه المتخشّبة في قبضتها على نتوء الحياة. شيء خشن. هل هو الحبل؟ ضغط على نفسه وفتح أصابعه الميّتة. قبض على "الشيء". الحبل. حبل الليف الخشن. لم يصدّق.. جسم يتحرّك أمامه ويجرّه بقوة. هل

45- المصدر نفسه، ص 26-25.

46- المصدر نفسه، ص 31.

47- المصدر نفسه، ص 49-48.

48- المصدر نفسه، ص 57.

هم الجن؟... نجا. نجا... رأى ملامح. يا ربي إنه الودّان. و.. فجأة، في عتمة هذا البصيص الرّبّاني، رأى أباه في عيني الودّان الصبور... صرخ بصوت مخنوق كأنه يناجي ربّه: أنت أبي. لقد عرفتكَ. انتظر. أريد أن أخبرك ... أغمي عليه.⁽⁴⁹⁾ سامحه الودّان وأنقذ حياته، وهو الذي كان يطارده للقضاء عليه. بعدها عاف أكل اللحم، وصار يعتقد أنّ أكل لحم الحيوان وأكل لحم الإنسان سيّان: «من يقدر أن يأكل لحم الودّان يقدر أن يأكل لحم الإنسان أيضا. لقد حلّ الأب في الودّان وحلّ الودّان فيه. هو والمرحوم والودّان العظيم الآن شيء واحد. لن يفصل بينهم شيء.»⁽⁵⁰⁾

وحين وقع في أيدي رجال الكابتن الإيطالي "بورديلو" واصطحبوه مع جماعة من أهل الواحة ليتدرّب لمحاربة الأحباش، قيّض له القدر مرّة أخرى ودّانا ليحلّ فيه ويمنحه فرصة الفكّك من الأسر «شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر ويتحوّل إلى ودّان، يعدو نحو الجبل، يتقافز نحو الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كلّ جانب»⁽⁵¹⁾. إنها استعادة واضحة للطوطم، حيث يؤدي حلول روح الحيوان في الإنسان إلى امتناع "أسوف" عن أكل اللحم ويتحوّل إلى إنسان نباتي ويشعر بانفعالات طوطمه، فيقطع على نفسه عهدا بعدم صيده، أو إرشاد الصيادين إليه.

إنّ الودّان هو طوطم "أسوف"، أدركه عن طريق التجربة وليس وراثيا، مع أنّ الطوطمية هي أقدم ديانة عرفها تاريخ البشرية، وهي ليست عبادة الحيوان أو النبات، لأنّ من يؤمن بالطوطمية، يرى أنّه والطوطم من أصل واحد، وهكذا، فإنّ الودّان هو طوطم الحضارة الرعوية التي ينتمي إليها "أسوف"، والعقد القائم بين مفردات هذه الحضارة وذلك الطوطم هو الذي منع الآخرين (الصيادين) من استثمار خبرة "أسوف" في اصطياد الودّان. وحين لم يجد تميمة تمنع ظهور طوطمه للصيادين دعا الله وقرأ الفاتحة، وأردف ذلك بمحاولة تضليلهم بأن أنكر أن تكون الآثار التي رآوها آثار ودّان وقال إنّها آثار ماعز، مما أغضب قابيل

49- المصدر نفسه ، ص 69-70.

50- المصدر نفسه ، ص 75.

51- المصدر نفسه ، ص 83.

« آثار ماعز؟ هل هذه آثار ماعز... انحنى قابيل فوق فضلات الودّان. بسطها في يده، وقال غاضبا: هل هذه أيضا فضلات ماعز؟⁽⁵²⁾ لكنّ الودّان يظهر ويراه "أسوف" «وكي يداري ارتباطه ويشغل اهتمامهما، رفع رأسه، إلى أعلى وكثّر للصلاة.. أنهى صلاته. كرّر مناجاته للجبل أن ينعي روحه، التفت خلفه: الودّان اختفى»⁽⁵³⁾.

إنّ قداسة الودّان من قداسة الإنسان، لذلك لما تدخلت روحه لإنقاذ "أسوف"، هزّ الصوفيون الحكماء في الواحات «رؤوسهم من الوجد، وألقوا بالبخور في النار، وأجمعوا: ذلك وليّ من أولياء الله. وفي الليل ذهبوا إلى الزاوية، ونظموا حفلة ذكر، جذبوا فيها حتى الفجر إكراما للوليّ، وفرحا بحلول الذات الإلهية في المخلوق الأرضي البائس»⁽⁵⁴⁾، لأنهم لم يجدوا ما يفسّرون به ذلك غير اعتبار الودّان، روح الجبل، مخلوقا مقدّسا، والمقدّس يظهر دائما كحقيقة من نظام آخر غير الحقائق الطبيعية، وتستطيع اللّغة أن تعبّر بسداجة عن المخيف أو العظيم أو الخيالي الغامض، بمصطلحات مستعارة من ميدان طبيعي أو من الحياة الروحية الدنيوية للإنسان»⁽⁵⁵⁾ لذلك يعتبر الودّان في تصوّر "أسوف"، وفي تصوّر الصحراوي البدئي للكون والحياة، واحدا من مكوّنات البنية الاجتماعية والعقائدية لعالم الصحراء، ويقود إلى قواه الحقيقية، وهكذا يحوّل اتحاد روح الودّان وجسد "أسوف"، الراعي الأعزل الذي عاش على الفطرة والزهد والتعقّف وسكن البرية مثل ودّان إلى تمثيل صريح لما يمكن تسميته «الجسد الطبيعي الكوني المنبثق عن رؤى وتصورات أسطورية، تتحاور فيها معتقدات إichائية طوطمية ما قبل تاريخية، وفلسفات قديمة وحديثة، ومعتقدات دينية... تصوّر الجسد الإنساني جزءا من الطبيعة وكائناتها الحيّة، التي قد تتمتع بأهميّة رمزية تفوق أهميّة الجسد البشري من هذا المنظور الخاص»⁽⁵⁶⁾ لذلك يبدو أنّ الرواية بهذا الصّدّد، تسعى إلى استكشاف المعتقدات الأرواحية التي كان يؤمن بها سكان

52- المصدر نفسه، ص 88-89.

53- المصدر نفسه، ص 89.

54- المصدر نفسه، ص 84.

55- مرسيا إلباد، المقدّس والمقدّس، تر: عبد الهادي عباس، دمشق 1988، ص 16.

56- معجب الزهراني، تمثّلات الجسد في نماذج الرواية العربية، مجلة فصول، القاهرة 1998، ص 279.

ليبيا القدماء الذين تركوا آثار مقدّسات مرسومة على جدران الكهوف في شمال الصحراء، وثمّ ربطها بالكتاب المقدّس والقرآن الكريم، في إشارة إلى أنّ المقدّس واحد، والروحانية ظاهرة إنسانية⁽⁵⁷⁾ وهكذا يبدو النزوع الطوطمي في "التزييف" صورة من مجموع التعزيزات التي تؤكّد وحدة الإنسانية. وترى "فريال غزول" أنّ تماهي "أسوف" مع الحيوان في طوطمية الانتساب والنسب من خلال أحداث تؤكّد على الأخوة، ومن خلال تعزيزات تشبيهية وإستعارية، يأخذ بعددين، فكما يتوحّش "أسوف" ليصبح حيوانا، كذلك يؤنسن الحيوان⁽⁵⁸⁾ لكنّ البعد العقائدي في هذا التماهي أقوى إلى درجة أنّ "أسوف" يخطئ اتجاه القبلة في صلاته: « فلم يوجّه ركعته نحو القبلة وإنّما نحو الصنم الحجري المنتصب فوق رأسه، في قعر الوادي العميق»⁽⁵⁹⁾ وإن كان فيما يفهم من السياق، خطأ قصده السارد للربط بين الماضي بطقوسه الوثنية والحاضر بشعائره وعباداته. إنّه يريد أن يقول إنّ الصحراوي دائم التسليم للقوى الغيبية، والاعتقاد بقدرتها وأحقيتها في العبادة والتأمل: «أنهى صلاته وألقى برأسه إلى الوراء متابعا الجدار العملاق المنتصب فوق رأسه، كبير الجنّ يباركه. نظرته الغامضة من خلف القناع تنطق بالرضا والسكينة. والودّان المهيب، المتوجّ بقرنين ملتويين، أيضا يوافق إلهه ويوحي بأنّه قبل الصلاة وفاز برحمة ربّ المعبد»⁽⁶⁰⁾

لقد تعلّم "أسوف" كيف يخضع لالتزام مقدّس اتجاه طوطمه، وزرع فيه ذلك، عن طريق التجربة، رادعا ذاتيا بالألّا يصطاد طوطمه ولا يأكل لحمه، وفي ذلك جوهر الطوطمية: «فلعلّ الطوطم هو الشكل الأوّل لبديل الأب، والإله هو الشكل المتأخّر الذي استعاد فيه الأب من جديد هيئته البشرية»⁽⁶¹⁾ وبرأي صاحب الرواية نفسه: «إذا كان الناس يرون أنّ العلاقة ذات السليقة الحميمة بين الإنسان والحيوان، موجودة في كلّ بيئة، فلا شكّ أنّها سمة فارقة في البيئة الصحراوية... لأنّها إذا كانت علاقة طارئة في بيئة ما... فإنّها تكتسب في

57 - فريال غزول، مجلة ألف، عدد 17، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1997، ص32.

58 - الرواية، ص35.

59 - المصدر نفسه، ص 13.

60 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

61 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

العالم الصحراوي بعدا دراميا، لأنها لا تتوقف عند حدود تقاطع عابر، بل تؤسس لما يمكن أن نسميه "وحدة الكائنات" في العالم»⁽⁶²⁾ وهي العلاقة التي تخللت كل أشكال المعتقد القديم في التراث العربي، ويربطها "روبرتسون سميث" بالمجتمعات الرعوية حيث كان يستعاض بروح الحيوان بديلا عن روح الإنسان في القرابين⁽⁶³⁾.

إنّ التقديس الذي صار يحظى به الودان في وعي "أسوف" يقدم لنا نمطا أوليا مركزيا للتصور الرعوي، وكذلك للاستعارات الدينية من قبيل "مرعى" و "قطيع" وتوحد الآلهة بالحيوان وبالإنسان في عالم الصحراء مما يشكل أساس الرواية الطوطمية في صورة "الزيف". ويؤكد "ليفني شتراوس" هذا التصور. فهو يرى أنّ التصورات الطوطمية للمجتمعات التي صاغتها بمثابة رموز تؤمن بها باعتبارها أنساقا إدراكية تحوّل الإشارات والرسائل التي تردّ إلى مرتبة من المراتب بعضها إلى بعضها الآخر... وتدرك من خلال التوسط بين الثقافة والطبيعة، وهذا من وظائف المعامل الطوطمي الأساسي⁽⁶⁴⁾.

3- بمثابة خاتمة: تجمع رواية "الزيف" إلى التصورات الطوطمية للمجتمعات التي صاغتها بمثابة رموز تصوّرا وسلوكا يناقضان تلك التصورات، تعرب عنهما شخصية "قابيل" الذي يسعى بفعل نهم وشره كبيرين لسفك الدّم وأكل اللحم إلى إبادة قطعان الغزلان وطوطم "أسوف"، ثم الإجهاز عليه هو نفسه عندما لا يجد ما يأكله، ولما كانت الرواية تحيل إلى فكرة الأب أو الجد الأسطوري (الطوطمي) بالتوازي مع الإحالة إلى الصراع الأزلي بين "قابيل" و "هابيل"، وإلى الخطيئة التي تعبّر عنها الشهوة إلى الدّم، وتحوّل البطل إلى أضحية في سبيل التكفير عن الخطيئة، فمعنى ذلك أنّنا إزاء موضوعة أخرى تؤطر الموضوع العام للرواية وتؤسس علاقة شخوصها بعضهم ببعضهم الآخر.

62 - إبراهيم الكوني، وطني صحراء كبرى (حوارات)، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان 2009، ص 233.

63 - روبرتسون سميث، ديانة الساميين، تر: عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1997، ص 399.

64 - كود ليفني شتراوس، العقل البري، تر: نظير جاهل، بيروت 1987، ص 115.